

خمسون الهزيمة

هل تخيل أحد ممّن شهد كابوس الخامس من حزيران/يونيو أن تصل الهزيمة إلى عامها الخمسين، وهي لا تزال جاثمة بكل ثقلها على حاضر العرب وفلسطين؟ هل تخيل مؤرخو النهضة والحدّثة، أن يكون عملهم الرئيسي، إن لم يكن الوحيد، هو فك طلاسم الهزائم المتتالية التي بدأت مع مطلع القرن الماضي ولا تزال مستمرة إلى اليوم؟ مئة عام على وعد بلفور؛

سبعون عاماً على قرار تقسيم فلسطين؛

نصف قرن على هزيمة ١٩٦٧؛

وماذا أيضاً؟

مسلسل من الهزائم المتواصلة، حتى حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، لم يكن سوى محاولة لإضافة شرعية القتال على الاستسلام، وعلى مسيرة الحروب على الشعوب العربية، التي اتخذت أشكالاً متعددة، ونراها اليوم تعربد فوق خرائب المدن والأمصار وآلام اللاجئين الجدد. هل صارت مهمة الكتابة هي الرثاء، وكتابة تاريخ "النكبات"، وإعلان العجز عن مواجهة زمن النكبة المستمرة؟

منذ الهزيمة الحزيرية سال حبر كثير ودم كثير، لكن العرب لا يزالون عالقين في زمن الهزائم التي تتوالى. ومن مفارقات هذا الزمن أن الأنظمة الانقلابية والمستبدة لم تُهزم؛ هُزمت الشعوب واستتبحت الأرض، لكن الأنظمة ازدادت رسوخاً، إذ يبدو أن شرط انتصار الأنظمة هو هزيمة الشعوب، وهذه إحدى أعاجيب تاريخ الهزائم التي تتوالى جارية معها حرية المواطن وكرامته. هذه السنة هي سنة تراكم أشلاء التاريخ على العرب. والغريب أن هذا التراكم يتساقط على حاضر عربي يرسمه الموت بدماء الضحايا. فنحن لا نتذكر حين نتذكر، فالذاكرة لا مكان لها لأنها تتكرر في الحاضر، وشرط التذكر هو أن يكون ما تحيلنا إليه الذاكرة ماضياً انتهى، أما حين يكون الحاضر مجرد امتداد للماضي، فإن مهمة المؤرخين تصير عسيرة.

وحين يريد الباحث أن يدرس الهزيمة محرراً الفكر من قراءة ثقافية أهملت مسؤولية صنّاع الهزيمة الحزيرية لتركز على "تخلّفنا الثقافي والحضاري"، فإنه يجد نفسه أمام ما يشبه الأحمية، إذ بعد نصف قرن على الحرب التي انتهت لحظة بدايتها، يجد المؤرخون أنفسهم أمام استحالة دراسة وثائق الحرب المحجوبة خلف أقفال "أسرار عسكرية" لا يعرفها سوى العدو الإسرائيلي. وثائق الجيوش الثلاثة التي خيضت بها الحرب محجوبة بشكل شبه كامل، فكيف يمكن للمؤرخين أن يعملوا ويقدموا سرديات هذه الحرب، كي نستطيع استخلاص دروسها؟

حين نقول إنه قرن الهزائم فهذا ليس دعوة إلى الإحباط، إذ إلى جانب "احتفالنا" بالذكرى الخمسين للهزيمة الحزيرية يجب أن نتذكر أنه في هذا العام أيضاً نحتفل بالذكرى الثلاثين لاندلاع الانتفاضة الفلسطينية الكبرى التي نطلق عليها اسم "انتفاضة أطفال الحجارة". قرن الهزائم كان أيضاً قرن المقاومة، من معركة "الكرامة" في سنة ١٩٦٨، إلى الصمود الأسطوري في

بيروت وقلعة الشقيف في سنة ١٩٨٢، إلى شجاعة مقاتلي حرب المخيمات التي كانت شرارة اندلاع الانتفاضة الكبرى، إلى الانسحاب الإسرائيلي بلا قيد ولا شرط من لبنان في سنة ٢٠٠٠، إلى فشل إسرائيل في حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦، وصولاً إلى ميادين المدن العربية التي هتفت للحرية في سنة ٢٠١١.

صحيح أن الانتفاضة الكبرى طُعن في أوصلو، وأن جثث ضحايا صبرا وشاتيلا صارت أشبه بوادي الألم الذي يحاصرنا، وأن النهاية المأسوية للانتفاضة الثانية على شكل بانتوستانات محاصرة بالاحتلال تثير الغضب والأسى، وأن غزو العراق وإدخاله في نفق الحروب كانا بداية كارثة جديدة تجلت في مذابح ميادين الحرية في المدن العربية، لكن الصحيح أيضاً، هو أن إرادة المقاومة لا تموت لأنها هي الأفق الوحيد.

أردنا في هذا العدد تقديم قراءة للهزيمة الحزيرانية، فاكتشفنا صعوبة ذلك، فإكتفينا بملف يقدم التجربة المصرية مثلما قرأها المؤرخ المصري خالد فهمي، كما أطللنا على قراءة الهزيمة في واقعها الفلسطيني مع مقالتي لداود تلحمي وجميل هلال، وقراءتي فكريتين لفصيل دراج والياس خوري.

لكن الهزيمة تحتاج أيضاً إلى قراءة فلسطينية داخلية، وهذا ما يحمله ملف وقائع القدس من خلال دراسة نظمي الجعبة وتقرير عبد الرؤوف أرناؤوط، علاوة على مقالة المهندس جاد ثابت الذي يدرس الواقع في مدينة الخليل والمآسي التي تعيشها هذه المدينة المحتلة بالمستعمرات الوحشية، في بحثها عن تراثها المقاوم.

إلى جانب الملف الحزيراني الذي نُشر في باب "مداخل"، ننشر ملفاً عن "آفاق بترول الشرق الأوسط"، وهو كناية عن مجموعة من الأبحاث قُدمت في ورشة عمل أشرف على إعدادها وليد خدوري في مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ويعالج آفاق الصناعات البترولية مركزاً على سياسات إسرائيل تجاه قطاع الغاز، شارك فيه: وليد خدوري، ويولا البطل ورندة حيدر، وفؤاد السنيورة. ولأن الهزيمة تتخذ أشكالاً متعددة، فإننا ننشر دراسة علاء الترتير عن تجريم المقاومة في فلسطين انطلاقاً من تجربة مخيم بلاطة وجنين.

الواقع المحزن الذي عاشه هذان المخيمان بعد هزيمة الانتفاضة الثانية يأخذنا إلى جرح المخيمات المفتوح في سورية ولبنان. واستكمالاً للتحقيق الذي نشرناه في العدد الماضي عن واقع مخيم شاتيلا، نذهب في هذا العدد إلى مخيم عين الحلوة في صيدا لنكتشف المخاطر التي تحيط بأكبر مخيم فلسطيني في لبنان، وهو يعيش في زمن "إدارة التوتر".

علي الجرباوي يناقش وثيقة "حماس" الجديدة، بينما يعالج عز الدين التميمي مشكلات التعداد الإسرائيلي وصناعة المواطنة.

وكي يكتمل ملف الهزيمة ننشر نص موشيه دايان عن احتلال اللد، وهو نص حري بالدراسة لأنه إلى جانب سوقية لغته وبداءتها يقدم تقريراً عن الرؤية الإسرائيلية إلى سقوط المدينة حيث سيقيم الجيش الإسرائيلي بتأسيس أول غيتو فلسطيني.

هذا إلى جانب الأبواب الثابتة: قراءات وفصليات والوثائق. ■

هيئة التحرير